

الروافد المعرفية لفكر مالك بن نبي بين الفلسفة والعلوم الطبيعية

The knowledge streams of thought of Malek Bennabi between philosophy and science

*سميرة بوشعالة

Samira BOUCHAALA

جامعة صالح بونبندر-قسنطينة 3 samira.bouchaala@univ-constantine3.dz

تاريخ النشر: 2023/06/30

تاريخ القبول: 2023/05/07

تاريخ الإرسال: 2023/01/28

Abstract:

Malek Bennabi represents a respected school of thought in the contemporary world, his ideas are distinguished by characteristics such as:

His experience of Islamic and Western cultures, his specialized academic studies and his famous methodological teachings.

His thought was developed through a variety of factors, including his readings in the fields of Islam, philosophy and science.

We will attempt to identify the knowledge streams of the school of thought of Malek Bennabi, through which this scholar deals with a legacy of knowledge in the fields of philosophy, and natural sciences.

Keywords: Malek Bennabi, knowledge streams, philosophy, natural sciences

ملخص:

مالك بن نبي يمثل مدرسة أصيلة في العالم المعاصر، اتمم فكره بخصائص منها: خبرته بالحضارتين الإسلامية والغربية، دراسته الأكاديمية المتخصصة وتكوينه المنهجي المتميز. فكر تمت بلورته من خلال مجموعة من العوامل منها: قراءاته المختلفة في مجال الإسلام، الفلسفة والعلم.

وسنحاول في هذه المداخلة الوقوف على الروافد المعرفية لفكر مالك بن نبي من خلال المحاكاة التي أجراها هذا المفكر مع التراث المعرفي في مجال الفلسفة والعلوم الطبيعية.

الكلمات المفتاحية: مالك بن نبي، روافد معرفية، الفلسفة، العلوم الطبيعية.

* المؤلف المرسل.

1. مقدمة

مالك بن نبي عالم اجتماع - في المقام الأول - تناول ظاهرة اجتماعية تمثلت في أزمة المجتمع الإسلامي، فتمكن من تشخيص هذه الأزمة بأنها أزمة حضارة، وأكثر من ذلك اقترح حلولاً لهذه الأزمة من خلال شروط الإقلاع الحضاري. تشخيص وحلول شكلاً مضمون نظريته عن الحضارة. نظرية مثلث إضافة جديدة وأصيلة في حقل من حقول العلوم الاجتماعية وهو علم الاجتماع. حقل قبيل التأسيس الأكاديمي له كان عبارة عن تفكير اجتماعي ترسم معالمه في إطار الفلسفة، لكنه تمكن من إرساء أطر نظرية وسبل منهجية انتزع بها شرعيته كعلم قائم بذاته، خاصة بعد اقتدائه بمنهج العلوم الطبيعية.

وهنا نسأل:

كيف كان استيعاب مالك بن نبي للفلسفة وكيف كان توظيفه لمقولاتها؟

كيف كان فهم مالك بن نبي للعلوم الطبيعية وكيف كان توظيفه لمنهجيتها؟

أسئلة ستحاول هذه الورقات البحثية الإجابة عنها من خلال تفكيك المقولات والقضايا التي صاغها بن نبي حول مفاهيم أساسية ثم إعادة قراءتها في ضوء الروافد المعرفية التي تأثر بها في مجالي الفلسفة والعلوم الطبيعية كمحاولة لفهم مدلول هذه المفاهيم، أبعادها ومنطق تحليلها.

2. روافد الفلسفة في فكر مالك بن نبي

كانت البداية في هذا المجال في ذلك اليوم الذي استعار فيه كتاباً لكوندياك، فقد أثر فيه ذلك الكتاب تأثيراً عميقاً بحيث كان سبباً في تغيير اتجاهه إلى الاهتمام بالفلسفة والعلوم الإنسانية، بدلاً من الاهتمام بالأدب، لقد أسره هذا الكتاب الذي مثل فلسفة وجهت تفكيره من فكرة معلومة إلى فكرة مستنتجة، ولذلك كان يبحث عن الكتب في ذلك الاتجاه الجديد،¹ فقرأ

لكبار الفلاسفة نذكر منهم: هيغل، أوزولد شبنجلر، جون بول سارتر، جان جاك روسو، هرمان كسرلنغ، غوستاف لوبون... الخ. كتب صاغت بمضامينها الفلسفية أفكار بن نبي وحب اطلاعه وثقافته في اتجاه واحد، حيث دخل معها في مناقشات ومحاورات قادته لتبنيها أحيانا ورفضها أحيانا أخرى. ولعل ذلك يبرز في تصوره للدورة الحضارية كما يبرز أكثر في رؤيته لشروط الإقلاع الحضاري.

1.2 الدورة الحضارية

بن نبي ذهب إلى أن المجتمعات في تحضرها تمر بثلاث مراحل هي الميلاد والنضج والانهييار ورأى أن الانهييار قد يحدث نتيجة أسباب يمكن علاجها، ومن ثم بإمكان أي مجتمع الدخول في دورة حضارية جديدة إذا أراد ذلك وخطط له، وهو ما جعله لا يقبل بنظرية هيغل G.W.F. Hegel في التعارض الداخلي على إطلاقها، فهو وإن قبل بوجود التعارض بين أسباب الموت وأسباب الحياة في العمليات الحيوية والبيولوجية والتي تؤدي بالكائن الحي إلى قمة نموه وقوته، ثم إلى ضعفه وتحلله فهو لا يقبلها في المجال الاجتماعي الذي تكون فيه حتمية التعارض محدودة ومشروطة، ذلك أن التطور الاجتماعي محكوم بعوامل نفسية ومعنوية غير مادية، مما يمكن المجتمع من التحكم في قوانينه ليعدل من حياته ويصل إلى غاياته.² كما لم يجعله يقبل نظرية شبنجلر في جزئها المتعلق بفناء الحضارة وإن كان قد وافقه حين ذهب إلى أن التاريخ يمكن التنبؤ به على ضوء قوانين النمو التي تتحكم في تاريخ الثقافات.³

2.2 شروط الإقلاع الحضاري

إذ رأى بن نبي أن من الضروري التخطيط من أجل توجيه طاقات الفرد، ويعرف التوجيه بأنه: "تجنب الإسراف في الجهد وفي الوقت." وتوجيه هذه الطاقات يتم من خلال الثقافة بالدرجة الأولى، والثقافة كما يعرفها مالك بن نبي هي: "مجموعة من الصفات الخلقية

والقيم الاجتماعية التي يتلقاها الفرد منذ ولادته كراسمال في الوسط الذي ولد فيه، والثقافة على ذلك هي المحيط الذي يشكل الفرد فيه طباعه و شخصيته.⁴ وقد حدد مالك بن نبي مجموعة من الأفكار من شأنها توظيف طاقات المجتمع في حركة منظمة متكاملة الجوانب، وقد فصل في أربعة عناصر مهمة من شأنها أن تبعث في الثقافة القدرة على تحقيق المشروع الحضاري وهي: التوجيه الخلقي، التوجيه العملي، الفاعلية و الصناعة.

وسنحاول في هذا المقام التطرق إلى الشروط الثلاثة الأولى لما حظيت به من معالجات في التراث الفلسفي والذي تعامل معه بن نبي بكل فطنه وانتباه لواقع المجتمع الذي يريد أن يقلع بحضارته ومراعاة للخصوصية التاريخية والثقافية لهذا المجتمع، كما يتبين في المعالجة الآتية:

1.2.2 التوجيه الأخلاقي:

لقد أولى مالك بن نبي أهمية كبرى للتوجيه الأخلاقي والذي تحمله تعاليم الدين أيا ما كان نوعه سماويا أو وضعيا، لكن الروح الخلقية في الديانات السماوية تتسج توافق الأفراد ضمن حياة اجتماعية منظمة،⁵ إذ أنها تسعى إلى تحقيق انسجام طاقاتهم الحيوية لتسمح باستمرارية تماسك شبكة العلاقات الاجتماعية.⁶ وبهذا نظر مالك بن نبي للدين باعتباره المؤثر الأكبر في ميلاد الحضارة فالدين له تأثير جوهري على قضايا الحضارة ووقائعها التاريخية حتى انه أطلق عليه اسم المركب أو المعامل الذي لا تعمل باقي العناصر من دونه، فهو العنصر الذي يقوم عليه بناء عالم الأشخاص، والذي لا يقوم من دونه عالما الأفكار والأشياء. نظرية سبقه إليها مجموعة من الفلاسفة الذين قرأ لهم وتأثر بأفكارهم من أمثال:

* جان جاك روسو J.J. Rousseau: الذي لم يقبل ما اقترفه الإنسان الأوروبي والأمريكي الشمالي عموما في حق الإنسانية عندما استعاض عن الدين بالعلم فصار آلة

للتدمير لا تكاد تهدأ، وهو ما جعله ينتقد العلم الذي كان من أهم أسباب تخلي الإنسان عن طبيعته الخيرة مما أدى إلى صراع أفراد المجتمع.

* شبنجلر **Oswold Spengler**: الذي رأى أن الحضارة العظمى لا تظهر إلا وقد اكتشف أفرادها طريقة جماعية سرية للشعور بالعالم، ولن يحصل ذلك إلا إذا التزم الأفراد بنفس المبادئ الأخلاقية التي تهذب مطامعهم وتتحو بهم إلى غاية واحدة فلا تتصادم سلوكاتهم.⁷

* هارمان كسرلنغ **Hermann Keyserling**: والذي يقر بأن ميلاد الحضارة المسيحية بدأ بظهور الأخلاق المسيحية⁸ حيث جذبت انتباهه هذه الأطروحة التي تمد أصل الحضارات الإنسانية إلى الديانات. وهذه الأطروحة تمثل محور تفكير بن نبي.⁹

* ألبرت شفيتسر **Albert Schweitzer** : والذي يسند فكرة ميلاد الحضارة المسيحية إلى ظهور روح الأخلاق المسيحية من خلال تأكيده على أن تمام الحضارة يتحقق عندما يكون دافع كل وظائف المجتمع هو تحقيق كمال أفرادها روحيا وبالتالي أخلاقيا.

* غوستاف لوبون: **Gustave Lebon** فعلى الرغم من اعتباره للدين وهما وان التاريخ طبيعة المهوسين والمتعصبين من دعاة الدين، إلا أنه يعترف بأن مبادئهم الدينية أعظم عنصر يوجه ويبني حياة الأمم، لأن الدين روح جامعة قوية التماسك تسير بالأمة إلى العظمة كما حصل للمبادئ الدينية التي تطورت ضمن المجتمع الفرنسي ففجرت الثورة الفرنسية، فإذا انحلت تلك الروح كانت سببا في انحطاط الحضارة، وما تغيرت تلك المبادئ إلا وآذنت بميلاد حضارة جديدة.¹⁰

2.2.2 التوجيه الجمالي:

إن المبدأ الأخلاقي يمد الثقافة بعنصرها الأول وهو إقامة العلاقات بين عالم الأشخاص، فيحقق بذلك الأساس الأول للثقافة، ومن ثم يأتي دور الذوق الجمالي الذي يحدد صورة العلاقات، فهو الذي يطبع الصلات الاجتماعية بطابع خاص، فيضفي على الأشياء الصورة التي تتفق مع الحساسية والذوق العام من حيث الألوان والأشكال والحركات مما ينعكس إيجاباً على أفكار صاحبه، فيوجهه إلى الشعور بقيمة كرامته فيرقى بسلوكاته إلى الفضيلة، وبالعكس فالمظاهر القبيحة تسيء إلى فكر متلقيها وبالتالي إلى أعماله، فالمظهر الجمالي طبيعياً كان أم فنيا يعد سبباً في توجيه الكيان الإنساني إلى الرقي بفكره ووجدانه، ذلك أن مالك بن نبي ينظر إلى الذوق الجمالي من زاويته النفسية والاجتماعية، و ليس باعتباره الظاهري فقط، فهو يقول: "لا يمكن لصورة قبيحة أن توحى بالخيال الجميل، أو بالأفكار الكبيرة، فإن لمنظرها القبيح في النفس خيالا أقبح، والمجتمع الذي ينطوي على صورة قبيحة، لا بد من أن يظهر أثر هذه الصورة في أفكاره، أعماله، ومساعيه."¹¹ ومن ثم فالمبدأ الأخلاقي لا يتم وعيه إلا بحكم أنه جميل، وهذا بدوره تكريس لمصادقية وفاعلية المبدأ الأخلاقي في واقع المجتمع، مما يعطي القابلية لإبداع المفكرين المهتمين بالتوليف بين المبدأ الأخلاقي والمقتضيات الراهنة للذوق الجمالي وبذلك يتحول الذوق الجمالي (التوجيه الجمالي) إلى فن التعامل مع الطبيعة بمعناها الواسع غير مقتصرة على الطبيعة الإنسانية،¹² وهنا تبرز أكثر جدلية الحضارة والجمال في فلسفة هيغل الفيلسوف الألماني صاحب النظرية الديالكتيكية التي تقوم على أن كل حركة إنما تنشأ من موضوع ثم تتطور نحو موضوع نقيض ويشكل الاثنان موضوعاً جديداً في تطور مستمر،¹³ والذي يعتبر أن النتاج الطبيعي قابل للفناء لأنه لا يحوي روحاً على خلاف العمل الفني الذي يدوم بسبب تدفقه من الروح وكذا توجهه إليها كي يوقظ فيها الشعور بالكمال والذي وجب ترقيته فينا إلى أن يصير ذوقاً،¹⁴

وهنا يثير هيغل جدلية علاقة العقيدة بالجمال، فالعقيدة دافع إلى الإبداع الفني، والذي بدوره يدفع روح المتلقي إلى الرقي الخلفي، لكن هذا لا يعني أن كل ما سمي فنا ينتج خلقا قويا، وهو ما يبرزه بن نبي في مختلف مؤلفاته، فعلاقة الخلق بالجمال طردية جدلية معا، لكنه ينتقل إلى المفاضلة بينهما، ويعتبرهما سبب تحديد نوع الحضارة واتجاهها، فالمجتمع الغربي يولي الذوق الجمالي الأسبقية على المبدأ الأخلاقي، بينما المجتمع الإسلامي يرفع هذا المبدأ إلى المقام الأول، وهذا فرق جوهري بين الحضارتين.¹⁵ مما جعل الأولى تسقط في المادية متأثرة في ذلك بالتراث اليوناني والروماني فظهرت نزعة الفن للفن في ذوقها المتحرر لصالح فكرة الجمال، على خلاف الثقافة الإسلامية المعجبة بفكرة الحقيقة.

3.2.2 الفعالية:

تعد فكرة الفعالية جوهريّة في فلسفة بن نبي باعتبارها شرطا لا غنى عنه للنهوض بالأمة، فبعد تمحيصه لأنواع الفعاليات التي طرحت في التراث الفلسفي مثل جون بول سارتر الذي رأى أن الإنسان يعاني من العدم في هذا الوجود ويجب عليه العمل لتجاوزه، ولذا عليه أن يصنع نفسه بكل حرية، أو كفلسفة الحياة لبرغسون التي تطالب بالتطور الأخلاقي أو كالتيار البراغماتي الذي لقي انتشارا واسعا في العالم وهو التيار الذي يقيس درجة نجاح الفكرة بمدى فاعليتها في الواقع.¹⁶ وكيف لبن نبي الذي اطلع على مختلف تلك الفلسفات ألا يتأثر بتلك الوسيلة التي يستغلها أصحابها لإدراك هدف التغيير وهو الطامح مثلهم إليه، وبخاصة تغيير إنسان ما بعد الموحدين إلى فعال، بدل مجرد كونه منفعا سلبيا بما يجري حوله، ومن ثم دعا الإنسان إلى اعتماد منهج ذكي مرّن للاستفادة المثلى من معطيات الواقع بما يخدمه، موظفا في هذا مقولات الفعالية، المنطق العملي والعقل التطبيقي.

حيث يعتبر بن نبي المنطق العملي أو العقل التطبيقي مستمدا معايير من رصد لإمكانات الواقع الاجتماعي، حتى يتمكن الشخص من الربط السليم بين العمل ووسائله وأهدافه، أما الفعالية فهي تمثل كيفية ذلك الرباط، والتي يحتاجها العقل المجرد المتوفر بكثرة في مجتمعاتنا أما العقل العملي فينطلق من الإرادة والانتباه غير المتوفرين في الدول النامية، مع ضرورة نقده المتواصل ليكون أكثر فائدة مع مر الزمن.¹⁷

عموما لقد تأثر مالك بن نبي إلى حد بعيد في صياغة مشروعه الفكري ببعض المفكرين الغربيين البارزين مثل: نيتشة في كتابه هكذا تكلم زرادشت وفكرة كانط عن الحق والواجب التي تمثل عند مالك بن نبي معادلة التغيير الاجتماعي، كما كان جون ديوي حاضرا في الجانب التربوي لمشروع المفكر من خلال الأبعاد البراغماتية.¹⁸

3. روافد العلوم الطبيعية في فكر مالك بن نبي

البذور الفكرية لتأثر بن نبي بالعلوم الطبيعية قد بدأت معه بالثقافة الديكارتية والعلمية، التي تلقاها عن مدرسين فرنسيين في الثانوية بالجزائر، كما أن انتقاله إلى باريس ولقاؤه العلمي بسلسلة الأب مورو لفهمهم قد وضعت أساسا ليس لثقافته ومعارفه العلمية فحسب، وإنما بلورت تكوينه الفكري المنهجي إلى حد بعيد،¹⁹ والتي يقول عنها بن نبي: "...لم تهينني لدخول مدرسة اللاسلكي فحسب، بل غيرت جذريا اتجاهي الفكري، إذ أسكنت في نفسي شيطان العلوم، ولم يكن الأب مورو قد فتح باب مدرسة معينة، بل فتح لي عالم جديد يخضع فيه كل شيء للقياس الدقيق للكيف، ويتسم فيه الفرد أول ما يتسم بميزات الضبط والملاحظة."²⁰ تلك البذور الأولى لتأثر بن نبي بالعلوم الطبيعية نمت، فكان لها الأثر البالغ في تفكير بن نبي، حيث عمل تخصصه العلمي والتقني على سقيها، فخلال تواجده بباريس بهرته المبتكرات

العلمية والتكنولوجية الحديثة، فدرس الكهرباء والميكانيك والكيمياء والرياضيات.²¹ كما ولع بالرياضيات التي عكف على دراستها مدة طويلة.

ويعد هذين العاملين السبب المباشر في المنحى الذي أخذه المفكر في صياغة مفاهيمه الأساسية وتحديد نوع العلاقات التي تربط بين مفاهيمه والقضايا التي قال بها، إذ ينحو دون تحفظ في أغلب الأحيان إلى لغة الرياضيات ونموذج علم الحياة والكيمياء وبدرجة أقل علم الفيزياء، كقوالب للصياغة المفاهيمية.²² وهو في ذلك لم يعتمد إلى استخدام العلوم الطبيعية كإطار كلي للتفسير ومدخلا شاملا للوصف، وإنما كان يميل إلى اعتبار العلوم الطبيعية وسائل حيادية ميزت منهجية تفكيره، فتشكل لديه تفكير منهجي وصياغة فكرية دقيقة، لذلك لم تنفصل كل كتاباته عن الجانب التقني والمعادلات الرياضية المحضة التي فسر بها كل الظواهر الاجتماعية والسياسية والاقتصادية،²³ وحتى في جميع المناقشات والمناظرات والعروض والمحاضرات كان بن نبي يحاكي العلوم الطبيعية، فمن يحضر محاضراته يعرف الكثير من المصطلحات الفيزيائية والرياضية والكيميائية، التي دخلت بفضلها إلى حقل المشاكل الإنسانية مثل الحركة البراونية والتناذر والإشباع، والعتبة العليا والعتبة السفلى، والنواس والتذبذبات... الخ²⁴

وهذه بعض النماذج لنمط محاكاة المنهج الرياضي والعلوم الطبيعية عند مالك بن نبي.

1.3 الرياضيات

لما تعذر على بن نبي الالتحاق بمعهد الدراسات الشرقية، قرر بناء على رأي أحد أصدقائه التحول إلى مدرسة اللاسلكي، وكان الانتساب إلى تلك المدرسة على درجات وتطلب كل درجة منها مستوى معيناً من الإلمام بالرياضيات، فقرر الاستعداد لتلك الدراسة خلال الصيف بدراسة ما ينقصه من الرياضيات، فكانت تلك بدايته معها. هكذا كان تأثير تلك

الدراسات الأولى في الرياضيات والتي هيأت له لدخول مدرسة اللاسلكي ولم تكن تلك هي كل دراسته لذلك التخصص، وإنما كانت المدخل في هذا الاتجاه، إذا إنه استمر في دراستها في أثناء دراسته في مدرسة اللاسلكي، ثم فيما بعد في مدرسة الكهرباء والميكانيك.²⁵

لم يكن مالك على الرغم من حرصه على دراسة الرياضيات يحس بأن لها قيمة في الواقع التطبيقي، إلى أن اكتشف ذات يوم أثرها في مجال التطبيق إذ يقول في ذلك: " بينما كانت دروسي النظرية تسير من ناحيتها السير الحسن خصوصا الرياضيات، والجدير بالذكر ... أنني رغم حرصي على التحصيل في الرياضيات وتلقي بها، لم أكن أرى فيها كثيرا من الجدوى في الجانب التطبيقي إلى أن وزع على القسم مشروع آلة ضغط بصفتها موضوع جزئي في امتحان، فكان لزاما علي أن أستعمل الجهاز الرياضي لحل مشكلات الجهاز الميكانيكي، فأدركت منذ ذلك اليوم أن المعادلات هي مفتاح التطبيق وأنا لا نقدر علما حق قدره ما دمنا لا نعلمه إلا في صورته النظرية".²⁶ ومنذ ذلك الوقت بدأ المنهج الرياضي يطغى على تفكيره، فراح ينسج مفاهيمه وقضاياها في إطار هذا المنهج، حيث يسعى غالبا إلى تجريد الواقع الاجتماعي في شكل صيغ رياضية، ويقول في هذا الصدد: " إن لكل فكرة كيانا مستقلا ووحدته قائمة بذاتها، تؤثر بقدر ما تبقى محتفظة بوحدها، باعتبارها قيمة منطقية يمكن التعبير عنها طبقا لقواعد رياضية خاصة بالأفكار"، أما تلك القواعد الرياضية الخاصة بالأفكار فهي بلا شك منحنى المناطق نحو تعميم الحدود (الألفاظ) وصياغة مضامينها، فيما يسمى عندهم: المفهوم (المصطلح) والماصدق، حيث أنه كلما زاد عدد الحدود (المفهوم) ضاقت الماصدق، والعكس صحيح، وهو عند بن نبي يسميه بالقيمة المفاهيمية والتي يقول في معناها: "إن القيمة المفاهيمية تنقص عموما بمجرد ما نضيف لها أي قيمة أخرى، حتى لو كان حدا إيجابيا... مثال: فكرة = ماء، فكرة جديدة = ماء عذب." ويظهر جليا من استقراء الأفكار الأساسية لبن نبي، أنه يعتمد غالبا إلى تناولها في شكل معادلات رياضية، حتى تمكنه من

عزل مكوناتها وإبراز العلاقة الكامنة في شكل مفهوم أو قضية على نحو تتراص الأجزاء في شكل متفاعل ليتولد منها المفهوم أو القضية.²⁷

ومن بين المعادلات التي صاغها مالك بن نبي نذكر:

* **معادلة الحضارة:** فبن نبي لم يكتف بالتوصل إلى تحديد أزمة المجتمع الإسلامي بأنها أزمة حضارة، وإنما صاغها في شكل عبارة جبرية قابلة للتحليل وهي معادلته الشهيرة.

$$\text{الحضارة} = \text{إنسان} + \text{وقت} + \text{تراب}$$

ثم أخذ يحلل كل جزء من أجزاء هذه المعادلة، فقام بعمل تنازلي تحليلي انطلق فيه من مفهوم الحضارة باعتبارها مركب أو حسيطة تفاعل الإنسان والوقت والتراب، ثم أخذ يحلل الإنسان مركزا فيه على الجانب الذي يؤهله للتفاعل بين الطرفين الآخرين الوقت والتراب، وهو (الفكر) ولذلك احتلت المشكلة الفكرية حيزا مهما من مشروع بن نبي. ثم تناول جانب (الوقت) على أساس أنه هو الحيز أو الوعاء الذي يتحرك فيه الإنسان ليتعامل مع التراب. أما التراب - والأرجح أنه يعني به الكون أو الطبيعة لا مجرد الجانب المادي - فهو المجال الذي يتحرك فيه الإنسان عبر الزمن لينتج الحضارة.²⁸

* **معادلة الحق والواجب:** في تحليله لدوافع القيم الأخلاقية في عملية التنمية الاجتماعية، يتخذ المفكر من العلاقة الرياضية للحق والواجب متنا للتحليل والتوضيح على النحو التالي:²⁹

$$\text{حق} + \text{واجب} = \text{صفر}$$

فبتعبير الاقتصاديين، إننا أمام اقتصاد معاشي، ولكن الأهم عند المفكر أن هذه المعادلة في معناها الاجتماعي الشامل، تؤكد على ضرورة غلبة الواجب (قيم المسؤولية نحو

الآخرين) على الحق (قيم المسؤولية نحو الذات) في جميع العلاقات الاجتماعية بما فيها الإنتاج الاقتصادي، وعلى هذا فإن المعادلة المنتجة اجتماعيا تصبح:

$$\text{حق} + \text{واجب} < \text{صفر}$$

2.3 الهندسة

بن نبي في تحديده لأزمة المجتمع الإسلامي بأنها أزمة حضارة، حاول تقريب هذه المفهوم إلينا وتوضيحه وهذا من خلال التحليل البنائي الوظيفي للحضارة. حيث فكك جزئيات هذا المفهوم وهي الإنسان، الوقت والتراب وأكد أن التفاعل بين هذه العناصر يحصل بواسطة الأفكار ولا سيما الفكرة الدينية التي تمثل جوهر الحضارة، ثم انتقل للحديث عن وظائف الحضارة وما تقدمه للفرد والمجتمع من تحضر يرقى ويسمو بهما. وبين نبي خلال العمليات التحليلية التي خص بها الحضارة لم ينس تخصصه الأكاديمي في الهندسة إذ اتخذته وسيلة تساعد على تبسيط الأفكار وتوضيحها، وذلك يتجلى من خلال:

* تعريف الحضارة: الحضارة عند مالك بن نبي ليست مجرد تكديس لعوامل تتيح التقدم، بل هي هندسة لعناصر منسجمة من معايير وأشياء واعية بهدفها تبني على مبادئ فكرة جوهرية لتحقيق غاية تلك الفكرة.³⁰ ومن ثم فالمعادلة الشهيرة "الحضارة" التي قدمها بن نبي والتي توضح عناصرها التحليلية

$$\text{الحضارة} = \text{الإنسان} + \text{الوقت} + \text{التراب}$$

وشرط ترابطها هو الفكرة الدينية، ليست مجرد جمع لعناصر مختلفة، وإنما هي عملية توجيه، والذي يعني الاقتصاد في الجهد والوقت. ومن ثم وجب التوجيه في مجال الأخلاق وفي مجال الفن وما يشمله من ألوان وأشكال وحركات حتى يتحقق الإدراك الحقيقي للأهداف فيكون العمل على بلوغها بفعالية من خلال التخطيط النظري والتطبيق الفعلي لهذا التخطيط.

* **بنية الحضارة:** يذهب بن نبي إلى: " أن بناء حضارة متوازنة يتطلب بويضة ورحما لتنمو بذرة الروح في ثناياه وتسد ويستوي عودها مع بقية البذور، ثم مخاضا عنيفا يهز الوليد ينفي عنه سموه وأخيرا تأتي الولادة الصالحة الأصلية." فالصورة التي اطلع بها بن نبي هي صورة تفصيلية ليست كتلك التي يأخذها مصور فنان، وإنما هي كتلك التي يضعها مهندس لبناء ما، فالوصف إذا وصف مهندس يضع التفاصيل عن كل زاوية وعن كل حائط، ومن هنا أخذت دراسته للمجتمع الإسلامي أهميتها لتغيير الواقع المزري لهذا المجتمع.³¹ بن نبي هنا يقدم وصفا مجازيا لعملية الإقلاع الحضاري أو بلوغ الحضارة التي تسمو بالفرد والمجتمع. وهذه الحضارة عبارة عن بناء لن يستقيم إلا إذا كانت أجزاؤه محكمة البناء، وأجزاء هذا البناء هي الإنسان (البويضة) والمجتمع (الرحم) والأخلاق أو الفكرة الدينية (بذرة الروح) وعالمي الأشخاص والأشياء المتفاعلين مع عالم الأفكار وخاصة الفكرة الدينية (بقية البذور) وفي الأخير التغيير الجذري الذي يحقق النهضة الحضارية (مخاضا عنيفا)، ولكل جزء من أجزاء هذا البناء خصائصه ومعايير التي يعمل في إطارها، معايير إذا التزم بها دفعته لأداء دوره بفعالية، حتى لا يبقى المشروع الحضاري نظريا بل مجسدا في أرض الواقع.

* **تأثير الأفكار:** حيث استعان بن نبي بتخصصه في الهندسة الميكانيكية لشرح الأثر الكبير الذي تتركه الأفكار في الشخصية، مظهرها وسلوكها، فعندما كان يقوم بمحو أمية مجموعة من العمال الجزائريين بمرسليا عام 1938، لاحظ أثر التعليم الذي تلقاه هؤلاء لمدة تسعة شهور في شخصيتهم ومظهرهم الخارجي، فقد تحولت نظراتهم التي كانت تتضمن لمحة وحشية إلى نظرات إنسانية، واختفت اللمة الحيوانية وحل محلها شيء ما ينم عن وجود فكرة داخلية، ومن ناحية أخرى فإن شفاهم انضمت أو تقاربت أكثر فأكثر. " ويستنتج بن نبي من هذه الملاحظة أن الرأس التي تتلقى فكرة تدفع عضلات الصدغ إلى العمل على شكل (زنبرك) يجذب إلى أعلى الفك الأسفل بحيث يقفل الفم، وعندئذ تتغير ملامح الوجه أكثر فأكثر.³²

3.3 الفيزياء

يتضح تأثر بن نبي بعلم الفيزياء الذي حصله نتيجة دراسته للكهرباء والميكانيك ويتجلى هذا التأثير من خلال:

*** الفعالية:** فهو يرى أن الحياة متغيرة المعطيات - وبالتالي المطالب - نتيجة تسارع وتيرة الكشف العلمية التي تأبى أن تترك الإنسان، فإذا شعر بمرونة أدواته المنهجية والتي يتقبلها العقل الواعي لواقعه، جعل في النفس نزوعا إلى العمل بطوعية، بل بتوتر أقوى. هذه المقولة التي يسحبها بن نبي كما سبقه إليها غيره من الفيزياء إلى الفلسفة لتدل عن توتر معنوي واسع المدى - بدل التوتر المادي محدود التأثير - قابل لينفعل إيجابا بالقوى التي يستثمرها لتغيير نفسه وبالتالي مجتمعه.³³ فيمكن للفكرة والحركة خارج منطق صارم للعمل، أي خارج توجيه وتخطيط واع مرن، أن تضيق الكثير من الوقت في المحاولة والخطأ فتفقد الكثير من فاعليتها بالقوة وبالتالي من فاعليتها بالفعل حتى لو كانت صائبة وهو ما حصل للفكرة الإسلامية والتي كثيرا ما ينتقد مالك بن نبي لا فاعليتها مع أنها تمتاز بكونها صحيحة .

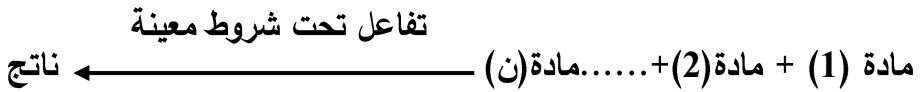
*** المقارنة بين رجل البادية والمدينة:** يشبه بن نبي كل من رجل البادية والمدينة بالماء الذي يستخدم لتوليد للطاقة الكهربائية داخل أحد الخزانات، فالماء قبل دخوله للخزان يكون مشتملا على طاقة كامنة تؤهله للإنتاج، أما في حالة خروجه فإنه يكون قد فقدها، وطبقا لعلم الطاقة المائية - كما يشير بن نبي - فإن ذلك الماء لا يمكن أن يعود إلى خواصه الأولى إلا إذا تعرض لعملية تبخر جديدة.

وقياسا على ذلك فهو يرى أن رجل ما بعد الحضارة على تشابهه مع رجل ما قبل الحضارة الذي يمثله رجل الفطرة، فإنه يختلف عنه لكونه غير قادر على القيام بعمل حضاري إلا إذا تغير هو شخصيا تغيرا جذريا.³⁴ بمعنى الجزئي في المرحلة الأولى ينطوي على طاقة

كامنة قابلة لأداء عمل اجتماعي، إلا أن هذا الجزيء بمجرد خروجه من الخزان (الحضارة) يفقد قدرته على توليد الطاقة (القيام بعمل مشترك أو إنتاج فكرة نافعة).

4.3 الكيمياء

استعان بن نبي بعلم الكيمياء فاستعار منه بعض المفاهيم كي يدلل على صحة أفكاره ومنها مفهوم التفاعل بين العناصر الكيميائية، حيث شبه بن نبي عناصر الدورة الحضارية بالعناصر المكونة للماء والتي تحتوي على نسبة معينة من الأكسجين والهيدروجين، موضحاً أن هذين العنصرين لا يكونان ماء إلا بعد إضافة (مركب) معين، وكذلك الحال بالنسبة إلى الحضارة، فإن عناصرها لا تتفاعل ولا تعمل إلا بتدخل مركب معين هو الدين. وللتوضيح نقول التفاعل في الكيمياء يتم بالصيغة التالية:³⁵

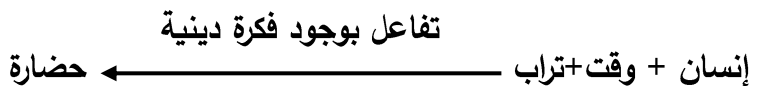


وإذا أسقطنا ذلك على تشكل الماء نجد:



وإذا استعنا هذه الصياغة الكيميائية وطبقناها على عناصر الدورة الحضارية عند

مالك بن نبي نجد:



بمعنى عناصر الحضارة (الإنسان، الوقت، التراب) لن تصنع حضارة إلا إذا توفرت طاقة تمكن عملية التفاعل من الحدوث وهي طاقة لازمة وضرورية لانتظام تلك المكونات في تشكل الحضارة، وهذا التفاعل هو الفكرة الدينية بمعنى عناصر الحضارة لا تتفاعل ولا تعمل إلا بتدخل مركب معين وهو الدين.

5.3 علم الحياة

تأثر مالك بن نبي بعلم الحياة وبكيفية معالجته لظواهره وصياغة مفاهيمه، ويتجلى هذا التأثير من خلال:

* تحليل الظواهر الاجتماعية: حيث ذهب بن نبي إلى مطابقة تحليل الظواهر الاجتماعية بالتحليل المخبري للمادة فيقول: "...لكي نتناول هذه المشكلة - ظواهر المجتمع الجزائري في ضوء الفكرة الدينية- يتعين علينا اللجوء إلى الطريقة في مختبر التحليلات، فنحن لكي نقوم بتحليل المادة لا ننقلها برمتها إلى المختبر، ولكننا نقتصر على اقتطاع عينات منها فحسب، وعينات حضارة ما هي منتجاتها الاجتماعية في جميع أشكالها...³⁶ بمعنى اعتماد مالك بن نبي على الاستقراء كسبيل لدراسة الظواهر الاجتماعية، وربما يرجع ذلك إلى عجز الاستنباط بمفرده عن اكتشاف حقائق تجريبية جديدة وهو سبب انصراف العلوم الطبيعية منذ القرن الثامن عشر والعلوم الاجتماعية الحديثة منذ أواخر القرن التاسع عشر عن الاستنباط إلى الاستقراء. ومع ذلك نلاحظ أن بن نبي لم يتخلى عن الاستنباط كمنهج للمقارنة والتحقق من الحقائق الجديدة المكتشفة بواسطة الاستقراء لا سيما في مقارنته بين الحضارة الإسلامية والحضارة الغربية عموماً، والمقارنة بين رجل البادية ورجل المدينة على وجه الخصوص، وبالمنهجين معاً الاستقرائي الاستنباطي استطاع أن يؤسس نظرية في الحضارة.

* أهمية الدين: حيث يأخذنا بن نبي مرة أخرى إلى علم الحياة ليؤكد الدور الحاسم للدين في تشكيل الحياة الاجتماعية واستمرارها حيث يقول: "إن الفكرة الدينية تحمل مقادير المجتمع، كما تحمل النطفة عناصر الكائن الحي الذي سيخرج بعد إلى الوجود..."³⁷ حيث شبه المجتمع بالكائن الحي الذي تتحدد خصائصه الجسمية، العقلية وحتى النفسية قبل ولادته وهو نطفة في رحم أمه، وكذلك الحال بالنسبة للمجتمع فإن نطفته هي الفكرة الدينية التي تحدد مصير هذا المجتمع بفعاليتها، فكلما كانت الفكرة الدينية فعالة كلما أدى ذلك إلى سمو المجتمع ورقيه وكلما كانت الفكرة الدينية غير فعالة أدى ذلك إلى انحطاط المجتمع وانهاره.

* تعريف الثقافة: حيث صاغ تعريفا للثقافة نسجه على أنغام علم الحياة فقال: "هي ذلك الدم في جسم المجتمع، يغذي حضارته، ويحمل أفكار الصفوة، كما يحمل أفكار العامة وكل هذه الأفكار منسجم في سائل واحد من الاستعدادات المتشابهة والاتجاهات الموجودة، والأذواق المتناسبة."³⁸ بمعنى المجتمع عبارة عن كائن حي، والدم الذي يسري في هذا الكائن الحي هو الثقافة التي تسود المجتمع، وإذا كانت وظيفة الدم هي نقل الأكسجين والمواد الغذائية لخلايا الأنسجة، فكذا الثقافة وظيفتها هي نقل الأفكار المغذية إلى سائر أفراد المجتمع، وإذا كان الدم أثناء أدائه لوظيفته (النقل) يحمل معه كريات بيضاء للدفاع عن سلامة الكائن الحي، فالثقافة أيضا أثناء تغذيتها الفكرية للمجتمع تحمل معها آليات دفاعية لتحصين المجتمع، آليات سماها بن نبي شروط الإقلاع الحضاري والمتمثلة في التوجيه الأخلاقي، التوجيه الجمالي، الفعالية والصناعة. وعليه فإن أي خلل يصيب المجتمع هو نتيجة للخلل الذي يصيب الثقافة فيعيقها عن تأدية وظيفتها الجوهرية.

والثقافة عند مالك بن نبي هي: " مجموعة من الصفات الخلقية والقيم الاجتماعية التي يتلقاها الفرد من ولادته كرأس مال في الوسط الذي ولد فيه، والثقافة على ذلك هي المحيط الذي يشكل الفرد فيه طباعه وشخصيته"³⁹ لذلك يؤكد بن نبي أن الثقافة لا يتم تعلمها لأنها

ليست نظرية في المعرفة بل هي نظرية في السلوك لاتصالها بأشياء أهم من العلم والمعرفة وأوثق صلة بالشخصية والسلوك الاجتماعي، وهذه الفكرة يشرحها بن نبي في المثال الآتي: ⁴⁰ شخصان ينتميان إلى مجتمع واحد ويختلفان في الظروف الاجتماعية وفي الوظيفة، كطبيب إنجليزي وراع إنجليزي، وشخصين آخرين متحدين في العمل والوظيفة والدرجة العلمية، ولكنهما ينتميان إلى مجتمعين مختلفين في درجة تحضرهما، كطبيب إنجليزي وآخر مسلم، حيث يكون سلوك الأولين اتجاه مشكلات الحياة متماثلاً، إذ تتجلى فيه الثقافة الانجليزية، في حين يختلف سلوك الشخصين الآخرين اختلافاً بينا يعود إلى اختلاف الثقافة التي تتحكم في سلوك الرجلين وتميز مجتمعيهما أحدهما عن الآخر، فالتماثل أو الاختلاف في السلوك هنا إنما ينتج عن الثقافة لا عن العلم والمعرفة.

5. خاتمة

إطلاع مالك بن نبي على التراث المعرفي في مجال الفلسفة والعلوم الطبيعية ساهم في عمق تفكيره وشمولية معرفته وقدرته على التحليل، فاستطاع أن يتعامل بوعي مع ما يأخذ ويكتشف، بل تمكن من توظيفه واستخدامه سعياً منه لرسم معالم الخروج من الأزمة التي يعاني منها المجتمع الإسلامي.

توظيفه للتعبير الرياضي ولنتائج العلوم الطبيعية في صياغة مفاهيمه وتحليله للعلاقات بين الظواهر باعتبارها وسائل حيادية أكسب منهجه تميزاً فكرياً، واستخدامه للمقولات الفلسفية أسس لمنطق الاستدلال لديه، فتشكل لديه تفكير منهجي وصياغة فكرية جديدة أصيلة.

6 . الهوامش والمراجع

- ¹ عبد الله بن حمد العويسي، مالك بن نبي حياته وفكره، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 2012، صفحة 174.
- ² فوزية بريون، مالك بن نبي عصره وحياته ونظريته في الحضارة، دار الفكر، دمشق، سوريا، 2010، صفحة 170.
- ³ المرجع السابق، صفحة 144.
- ⁴ مالك بن نبي، شروط النهضة، ترجمة عمر مسقاوي، عبد الصبور شاهين، دار الفكر، الجزائر، 1987، صفحة 83.
- ⁵ المرجع السابق، صفحة 94.
- ⁶ مالك بن نبي، ميلاد مجتمع: "شبكة العلاقات الاجتماعية"، ترجمة عبد الصبور شاهين، دار الفكر، الجزائر، 1986، صفحة 82.
- ⁷ هدى بن زقوطة، الدور الحضاري للمجتمعات الآسيوية المعاصرة عند مالك بن نبي، اليابان نموذجاً، رسالة ماجستير (غير منشورة)، الجزائر، قسنطينة، جامعة منتوري، كلية العلوم الاجتماعية والعلوم الإنسانية، قسم الفلسفة، 2000، صفحة 15.
- ⁸ مالك بن نبي، شروط النهضة، صفحة 63.
- ⁹ نورة خالد السعد، التغيير الاجتماعي في فكر مالك بن نبي، دراسة في بناء النظرية الاجتماعية، الدار السعودية، جدة، السعودية، دون طبعة، 1997، صفحة 31.
- ¹⁰ هدى بن زقوطة، مرجع سابق، صفحة 15-16.
- ¹¹ مالك بن نبي، مشكلة الثقافة، ترجمة عبد الصبور شاهين، دهر الفكر، الجزائر، 1984، صفحة 78-82.
- ¹² هدى بن زقوطة، مرجع سابق، صفحة 16.
- ¹³ فوزية بريون، مرجع سابق، صفحة 143.
- ¹⁴ هدى بن زقوطة، مرجع سابق، صفحة 16.
- ¹⁵ مالك بن نبي، شروط النهضة، صفحة 108-109.
- ¹⁶ هدى بن زقوطة، مرجع سابق، صفحة 17.

¹⁷ المرجع السابق، صفحة 17-18.

¹⁸ علي القرشي، التغيير الاجتماعي عند مالك بن نبي: منظور تربوي لقضايا التغيير في المجتمع المسلم المعاصر، الزهراء للإعلام العربي، دون مكان نشر، 1989، صفحة 58.

¹⁹ العابد ميهوب، الفكر التربوي عند مالك بن نبي، أطروحة دكتوراه (غير منشورة)، تخصص تربية، كلية العلوم الاجتماعية والانسانية، جامعة محمد خيضر، بسكرة، الجزائر، 2013-2014، صفحة 91.

²⁰ مالك بن نبي، في مهب المعركة: إرهابات الثورة، دار الفكر، الطبعة الثانية، دمشق، سوريا، 1981، صفحة 66.

²¹ عبد الحميد حسانين، "مالك بن نبي بيبليوغرافيا"، مجلة عالم الكتب، مج 21، عدد 4-5، أوت/سبتمبر، 2000، صفحة 423.

²² نعمان عباسي، الرؤية السوسولوجية في فكر مالك بن نبي، أزمة المدرسة نموذجا، رسالة ماجستير (غير منشورة)، تخصص علم اجتماع التنمية، قسم علم الاجتماع الديموغرافيا، كلية العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية، جامعة منتوري قسنطينة، الجزائر، 2001-2002، صفحة 61.

²³ العابد ميهوب، مرجع سابق، صفحة 92.

²⁴ عبد اللطيف عبادة، صفحات مشرقة من فكر مالك بن نبي، دار الشهاب للطباعة والنشر، باتنة، الجزائر، الطبعة الأولى، 1984، صفحة 19.

²⁵ عبد الله بن حمد لعويشي، مرجع سابق، صفحة 186-188.

²⁶ المرجع السابق، صفحة 193-194.

²⁷ نعمان عباسي، مرجع سابق، صفحة 61-62.

²⁸ عبد الوهاب بوخلخال، قراءة في فكر مالك بن نبي، سلسلة كتاب الأمة العدد 152، السنة 32، إدارة البحوث والدراسات الإسلامية في وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الطبعة الأولى، سبتمبر/أكتوبر، قطر، 2012، صفحة 47.

²⁹ نعمان عباسي، مرجع سابق، صفحة 69.

³⁰ مالك بن نبي، فكرة الإفريقية الآسيوية، ترجمة عبد الصبور شاهين، دار الفكر، الجزائر، الطبعة الثالثة، 1992، صفحة 84.

- ³¹ رحيم محياوي، بنية التراث الإسلامي العربي في فكر مالك بن نبي، إعادة البناء الحضاري، أطروحة دكتوراه (غير منشورة)، قسم الفلسفة، كلية العلوم الانسانية والاجتماعية، جامعة منتوري قسنطينة، الجزائر، 2002-2003، صفحة 13.
- ³² مالك بن نبي، في مهبط المعركة: إرهابات الثورة، صفحة 33.
- ³³ هدى بن زقوطة، مرجع سابق، صفحة 18.
- ³⁴ مالك بن نبي، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي. دار الفكر، دمشق، سوريا، 1981، صفحة 7.
- ³⁵ نعمان عباسي، مرجع سابق، صفحة 62.
- ³⁶ مالك بن نبي، آفاق جزائرية، ترجمة الطيب شريف، مكتبة النهضة الجزائرية، الجزائر، د.ت، صفحة 96.
- ³⁷ مالك بن نبي، ميلاد مجتمع: "شبكة العلاقات الاجتماعية"، مرجع سابق، صفحة 52.
- ³⁸ مالك بن نبي، مشكلة الثقافة، مرجع سابق، صفحة 78.
- ³⁹ مالك بن نبي، شروط النهضة، مرجع سابق، صفحة 83.
- ⁴⁰ فوزية بريون، مرجع سابق، صفحة 214.